

الفصل الرابع الفخر الحماسى

فطر العربي على الحماسة كما فطر عليها كل إنسان ، وذلك أن حب الحياة حمل الناس على النزاع فى سبيل الحياة ، وإذا الأرض ميدان واسع لتنازع البقاء ، وإذا الناس اثنان : غاز ومغزو ؛ أو هم بالحرى تارة مغزون وطوراً غازون . وهم فى كل حال جماعة جلاذ وقتال ، يقوم فيما بينهم من يبوq لذلك القتال ، ويدعو إليه ، ويث الحماسة فى صدور الأبطال ، أو يسجل المواقع بكلام منظوم هو الشعر الحماسى . وهذا الشعر الحماسى نشأ عند جميع الشعوب نشأة بدائية مقطعة الأوصال ، يرافق نبضات القلوب ، وغضبات السيوف ، ثم راح مع الأيام ، عند الشعوب المتقدمة فى سبيل المدنية والوعى ، يصور دامى الذكريات وروائع المشاهد ، ويتغنى بالبطولات القومية ، ويعلق أطرافها بأعمال بطل من الأبطال ، ويضخم المواقف ، ويرفعها إلى أجواء الخوارق ، فى قصص مملوءة بالحياة ، وفى وصف رائع الألوان ، وهكذا كانت الملحمة .

ولأكثر أمم الأرض ملاحم شعرية سطرت فيها الأبحاد القومية ، وخلال العظمة التى ورثها الأبناء عن الآباء ؛ فلأمة اليونان إلياذة هوميروس وأوديسته ، وفيهما إحياء الحرب الطروادية مضخمة ، ولأمة الرومان إلياذة فرجيليوس وفيها ذكر مغامرات البطل إيناس جد روموس ورومولوس ؛ ولأمة الهنود ملحمة الرامايبانا للشاعر فالميكى فى ثمانية وأربعين ألف بيت من الشعر ، وفيها الشيء الكثير من تاريخ الهند القديم ؛ ولم أيضاً ملحمة المهاجارتا فى نحو مائة ألف بيت من الشعر ، ولأمة الفرس شاهنامه الفردوسى وهى سفر تلك الأمة وسجل أعمال

الأكاسرة وأعمال أبطال فارس ، ولأمة الألمان ملحمة النييباونغاليد وهي من آثار القرن الثالث عشر للميلاد : وقد دارت حول بطولات الفتى المغوار سيفغريد وحول مغامراته الغرامية ، ولأمة الفرنسيين ملحمة رولان التي ضمت مجد فرنسة في عصورها القديمة .

وهكذا كان لكل أمة من تغنى بأمجادها ، وهكذا كانت الملحمة قصة شعرية لأعمال بطولة خارقة . ولئن فات العرب أن ينشئوا ملحمة ، وأن يقوم فيما بينهم من يجمع شعرهم الحربى ويربط بين أجزائه ، وفي وحدة عمل قصصى ، وفي وحدة هدف وغاية . ولئن حال دون ذلك ، عند العرب ، قلة انطلاقتهم وراء التخيلات الميثولوجية والحوارق الغيبية ، وضعف صبرهم على الحديث الطويل والرواية التي تطلب جلدأ وتحليلاً وإعمال فكر وسعة خيال ، وخروجاً عن حيز الذات والمنفعة القريبة المنال ، ولئن حال دون ذلك عندهم انصراف شعرائهم إلى استخدام الشعر للتعميش عن أقرب سبيل ، وإلى جعل الأدب في خدمة البلاط والمناسبات ، فلم يفهم أن يخوضوا المعارك بأقلامهم ، وأن يسردوا القصص الحربى ويصنفوا مواقف القتال ، وأن يجعلوا أنفسهم على المسرح مفاخرين ، متوثبين ، منفعلين ، على غير سنة الملاحم التي تطلب من الشاعر أن يكون راوية يروى أعمال غيره . وأن يسير العمل من وراء الستار .

وهكذا ، إن حرم الأدب العربى الملحمة المشبهة للملاحم الأمم المشهورة ، فلم يحرم تلك الملحمة الكبرى من الشعر الحماسى ، إلا أن تلك الملحمة مقطعة الأوصال ، قد اشترك في وضعها عدد لا يحصى من الشعراء ، وقد عمل على جمع شنائها عدد من الأدباء من مثل أبى تمام والبحترى وغيرهما ، فى دواوين كبرى تورد القصيدة أو المقطوعة إلى جنب القصيدة أو المقطوعة ، من غير ما واصل إلا واصل الجوار والموضوع الواحد . ولو أتيج لتلك القصائد من يؤلف ويربط لكان للعرب من عنرة الفوارس ، وجساس بن مرة . وكليب بن ربيعة ، والحارث

ابن ظالم، وغيرهم أشباه آشيل وأغا مذنون عند اليونان ، ورستم والأسفنديار عند الفرس ، ورولان عند الفرنسيين .

ولا سيما — على حد قول زكى المحاسنى — « وإن في المملكات الجاهلية العشر ، وفي سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، لما يتنخل منه ملحمة عربية كبرى قيلت في الجاهلية . لأن خواطر أصحابها الشعراء متقاربة ، بل تكاد تكون متحاذية ومتشابهة . وقد يضؤل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليين فتبدو صورهم الفنية مماثلة كل التماثل . فلدى طرفة بن عبد مقطوعات في معان جاء بمثلها امرؤ القيس ، كما أن لديه أبياتاً هي ذاتها عند ضريحه تتغير قوافيها فحسب ، وإن في وحدة معاشهم وطبيعة أرضهم المتشابهة ، وانبساط آفاق الرمل بين أعينهم ، وتظللهم تحت الخيام ، وعيشهم الراتب على المدر والحجر وفي الوبر ، لما طبعهم جميعاً على غرار واحد ، فألف بين مثالات معانيهم وخواطريهم ، وضروب تصورهم ، مع اختلاف قليل في أساليبهم . على أن البصير في أساليب المملكات العشر ، واجد فيها شبيهاً في النسج والمعنى ، مما يساعد على الأخذ بهذه النظرية التي أقول فيها باحتمال التأليف للملحمة عربية جاهلية . . . تمثل فرسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب . . . فللعرب في جاهليتهم وإسلامهم مواقف قلّ مثلها عند الأمم المحاربة القديمة ، وفي تشمير الجاهليين للحرب ليل نهار ، وغاراتهم المهاجمة التي ما حفلوا معها الموت ، ما لا يقل عن مثيله عند غيرهم من الأمم التي عاصرتهم أو تقدمتهم في الزمن . . . ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهلية ، فإن تاريخهم الحربى الذى نبه إليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب ، قد بدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان للعرب قصة حرب تبدأ من غزوات الرسول ، ثم تتحدر إلى حروب الفتوح في ديار فارس ، وأرض الروم ، وسائر الأقطار التي بلغ إليها العرب بسيوفهم حتى تبلغ شتات شملهم وتوزع سلطانهم في أواخر العصور » .

الحماسة في الجاهلية

(١) دواعي الحماسة الجاهلية :

للشعر الحماسي في الجاهلية دواع كثيرة ، منها أن البدوي وليد الصحراء يعيش في أكفافها ويواجه مخاطرها ، ويتقلب بين قسوة السماء وهيب الرمضاء ، أمل عيشه في أنعام يضطرب في الأرض من أجلها ، ويتوقع الأمطار ليروي عطشها ، فيرتحل من مكان إلى مكان في مجاهل يرتعش كلؤها في سراب خداع ، حتى إذا زاحمه غريب على الماء والكأل هاجمه ؛ وإذا هنالك كر وفر ؛ وإذا هنالك جلاذ وصراع . ودماء تسيل معها الأرواح ! وإذا هنالك طلب الثأر وإعداد العدة للانتقام ! وإذا هنالك تآلف وتحالف ، وتناد للحرب بين البطون والقبائل ؛ وإذا هنالك أخيراً صولات وجولات يتصادم فيها الأبطال ، وتتعانق فيها السيوف والنصال . وتتعالى فيها أصوات الرجال وهمهمات الخيول والإبل ، وتنطلق أسنة الشعراء مدوية ، معددة للمكارم والمفاخر .

ومن دواعي الشعر الحماسي أن البدوي شديد الحفاظ على الشرف والجار ، فإن تعدى عليهما أحد ، أوقد نار الحرب والقتال ، وأذكى بذلك القرائح ، ففاض الشعر في أسلوب ملحمي هدار .

وهكذا كان الداعي إلى الحماسة كل ما كان داعياً إلى الحرب ، وهكذا كانت كل حرب وكل غزاة ، وكل تعد وكل مناوأة ، سبباً من أسباب الفيض الملحمي الذي رافق تاريخ العرب في مختلف أطواره . وهكذا أخيراً كانت أيام العرب في الجاهلية محور شعرهم ، ومدار أقوالهم . ولتلك الأيام تاريخ طويل ، وهي ترجع إلى أيام العرب والفرس ، وأيام القحطانية فيما بينهم ، وأيام القحطانيين

والعدنانيين ، وأيام ربيعة فيما بينها ، وأيام ربيعة وتميم ، وأيام قيس فيما بينها ،
وأيام قيس وكنانة ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم .

أما أيام العرب والفرس فأشهرها يوم ذى قار وهو لبكر على العجم ، وقد
التقى جيش الأكاسة بجيش العرب في بطحاء ذى قار ، وذوقار ماء لبكر قريب
من الكوفة ؛ وكان جيش الفرس مؤلفاً من ثلاثة آلاف عربي ، ومن ألف من
الأساورة على رأسهم الهامرز ، وألف آخر من الأساورة على رأسهم خنابزين ،
ومن عدد كبير من الحلفاء والموالين ؛ وكان جيش العرب مؤلفاً من بنى عجل في
الميمنة وعليهم حنظلة بن ثعلبة ، ومن بنى شيبان في الميسرة وعليهم بكر بن يزيد
ابن مسهر ، ومن أفناء بكر في القلب وعليهم هاني بن مسعود . وقد دارت
الدائرة على الفرس ، وقد اتبعهم بكر يقتلونهم بقية يومهم وليتهم ، حتى قضوا
على من قضوا وشردوا من شردها . ومن الأناشيد الحربية والأراجيز الحماسية التي
تناشدها العرب في ذلك اليوم وحض بها بعضهم بعضاً على القتال ، ما قالتها امرأة
من عجل من بنى شيبان :

إِنْ تَهْزَمُوا نُعَازِقُ وَنَفْرِشُ النَّمَارِقُ^(١)
أَوْ تَهْزَمُوا نَفَارِقُ فَرَاقَ غَيْرِ وَاَمِقُ

إلى غير ذلك من الشعر الذي ينطلق دفعاً دفعاً ، ويصور بلفظه وموسيقاه ،
مواقف الشدة وحركات الهجوم ، ومضات الأسننة ، والتحام الأبطال بالأبطال ،
وانفجارات الصدور والنفوس . وهذه المقاطع الشعرية أشبه شيء بمقاطع
الإلياذة ، في وصف هجوم الطراودة والتحام القتال بينهم وبين الإغريق .

وأما أيام القحطانيين فيما بينهم فأشهرها يوم حليلة للحارث الأعرج بن

(١) النمارق ج نمرقة وهي الوسادة الصغيرة أو الطنفسة فوق الرجل .

جبله ، ملك العرب بالشام ، على المنذرين المنذرين ماء السماء ، ملك العرب بالحيرة .
وأما أيام القحطانيين والعدنانيين فمن أشهرها يوم حاجر لبني أسد على حجر
والد امرئ القيس الشاعر المشهور ، وأخبار ذلك اليوم معروفة متداولة في كتب
الأدب ، لما للملك الضليل من أهمية في أدب الجاهلية .

وأما أيام ربيعة فيما بينهم فأشهرها حرب البسوس التي دارت بين بكر وتغلب
ابني وائل ، وقد دامت أربعين سنة . وإن في حرب البسوس من المواقف ، وإن
فيها من الشعر ما هو أشبه شيء بمواقف إلياذة هوميروس وشعرها . وحرب
البسوس - على حد قول سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة - « حرب تناقل
العرب أخبارها وتناشدوا شعرها . على ممر القرون حتى أيامنا هذه ، وصاغوها
بقوالب شتى لا يصلح قالب منها لصوغ الملاحم الثامنة كالإلياذة . ومع هذا فإن
جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة إلى الشعر القصصي منه إلى
الموسيقى ، فكل قصيدة منها قطعة من ملحمة . ولكن تلك القطع غير ملتزمة
لفقدان اللحمة بينها . فهي كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعها ، وبقيت
ملقاة في أرضها غير مرصوفة بالبناء . ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها ،
رأيتهم جميعهم شعراء ، فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جلييلة ، وأخوه مهلهل .
وكذلك مرة شاعر ، وابنه جساس شاعر ، وكل ذي شأن في القصة من غريب
وقريب شاعر ، كالحارث بن عباد وجحدر بن ضبيعة » .

ومن الأناشيد الحربية والقصائد الملحمية التي قيلت في حرب البسوس قول
مرة مخاطباً ابنه جساس :

فإن تك قد جنيت على حرباً تغصن الشيخ بالماء القراح
جمعت بها يديك على كليب فلا وكل ولا رث الملاح^(١)

ولكنني إلى العلاتِ أ جرى
 وإني حين تشمتجر العوالى
 شديد البأس ليس بندى عياء
 سألبس ثوبها وأذب عنها
 فما يبقى لعزته ذليل
 فإني قد طربت وهاج شوقى
 وأجمل من حياة الذل موت
 إلى الموت المحيط . مع الصباح (١)
 أعيد الرمح في إثر الجراح (٢)
 ولكنني أبوء إلى الفلاح
 بأطراف العوالى والصفاح (٣)
 فيمنعه من القدر المتاح
 طراد الخيل عارضة الرماح
 وبعض العار لا يحويه ماح

ومن ذلك أن الحارث بن عباد أرسل إلى المهلهل وقال : إن كنت قتلت بجيراً
 بكليب ، وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم . فقد طابت نفسى بذلك .
 فأرسل إليه المهلهل : إنما قتلته بشسع نعل كليب . فغضب الحارث ودعا بفرسه
 - وكانت تسمى النعامه - فجز ناصيتها وهلب ذنبها (٤) . ثم قال قصيدة منها :

كلُّ شئٍ مصيره للزوالِ
 وترى الناس ينظرون جميعاً
 قلُّ لأمِّ الأغرِّ تبكى بجيراً
 لهفَ نفسى على بجيرٍ إذا ما
 وتساقى الكُماةُ سماً نقيعاً
 غيرَ ربى وصالح الأعمالِ
 ليس فيهم لذلك بعض احتيالِ
 ما أتى الماء من رؤوس الجبالِ
 جالت الخيلُ يومَ حربِ عُضالِ
 وبدا البيضُ من قبابِ الحججالِ

(١) بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شئ .

(٢) تشمتجر : تتداخل .

(٣) الصفاح : السيوف العراض .

(٤) هلب ذنبها : نفضه .

يَا لِبَكْرٍ ! غَرَاءَ كَالْتَّمْشَالِ
 نَمَلًا الْبَيْدَ مِنْ رُؤُوسِ الرِّجَالِ
 حِينَ تَسْقِي الدَّمَ صُدُورَ الْعَوَالِ
 بِبِ عَجِيجِ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ
 ط. كَلِيبٍ تَزَاجِرُوا عَنْ ضَمَالِ
 وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِ
 فَآتَتْ تَغْلِبُ عَلَى اعْتِرَالِ
 قَتَلُوهُ ظُلْمًا بِغَيْرِ قِتَالِ
 إِنَّ قَتَلَ الْكَرِيمِ بِالشَّمْسِ غَالِ
 قَدْ شَرِينَا بِكَاسِ مَوْتِ زُلَالِ
 مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِهِ فِي الْخَوَالِ
 لَقِحَتْ حَرْبِ وَاثِلٍ عَنْ حِيَالِ (١)
 لَيْسَ قَوْلِي يُرَادُ لَكِنْ فَعَالِي
 جَدُّ نَوْحِ النَّمَاءِ بِالْإِعْوَالِ
 شَابَ رَأْسِي وَأُنْكَرْتَنِي الْعَوَالِ
 لَيْسُ وَالْغُدُوُّ وَالْآصَالِ
 طَالَ لَيْلِي عَلَى اللَّيَالِي الطُّوَالِ
 لَاعْتِنَاقِ الْأَبْطَالِ بِالْأَبْطَالِ

وَسَعَتْ كُلُّ حَرَّةٍ الْوَجْهَ تَدْعُو
 يَا بُجَيْرَ الْخَيْرَاتِ لِاصْلَحَ حَتَّى
 وَتَقَرَّ الْعَيْونَ بَعْدَ بُكَاهَا
 أَصْبَحَتْ وَاثِلٌ تَعَجُّ مِنَ الْحَرِ
 لَا بُجَيْرٌ أَغْنَى قَتِيلًا وَلَا رَهْ
 لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عَلِيمَ اللَّهِ -
 قَدْ تَجَنَّبْتُ وَاثِلًا كَيْ يُفَيِّقُوا
 وَأَشَابُوا ذُوَابِي بِبُجَيْرِ
 قَتَلُوهُ بِشِمْسِ نَعْلِ كَلِيبِ
 يَا بَنِي تَغْلِبِ خَذُوا الْحَدْرَ إِنَّا
 يَا بَنِي تَغْلِبِ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا
 قَرَّبًا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنْنِي

(١) عن حِيَالِ : أى أن حرب واثل هاجت بعد سكن.

قرباً	مربطاً	النعامة	منى	وأعدلاً	عن	مقالة	الجُهالِ	
قرباً	مربطاً	النعامة	منى	ليس	قلبي	عن	القتالِ بسألِ	
قرباً	مربطاً	النعامة	منى	لَمَّا	هبَّ	ريحُ	ذيلِ الشمالِ	
قرباً	مربطاً	النعامة	منى	لِبُجَيْرِ	مُفَكِّكِ	الأغلالِ		
قرباً	مربطاً	النعامة	منى	لكريمِ	متوَجِّحِ	بالجمالِ		
قرباً	مربطاً	النعامة	منى	لا	نَبِيعُ	الرَّجالِ	بِيعِ النَّعَالِ	
قرباً	مربطاً	النعامة	منى	لِبُجَيْرِ	فداه	عمى	وخالى	
قرباً	ها	لحى	تَغْلِبَ	شُوساً	لاعتناقِ	الكُماةِ	يَوْمَ القِتالِ (١)	
قرباً	ها	وقرباً	لأمتى	دِرْ	عاً	دِلاصاً	تردُّ	حدَّ النَّبالِ (٢)
قرباً	ها	بِمُرَهَفَاتِ	حِدَادِ	سائِلُوا	كِنْدَةَ	الكرامِ	وبِكراً	
إذ	أَتَوْنَا	بعسكِرِ	ذى	زُهاؤِ	مُكْفَهَرٍ	الأذى	شديدِ المَصالِ (٣)	
فَقَرَيْنَاهُ	حينَ	رامَ	قِراناً	كل	ماضى	الذبابِ	عَضِبِ الصَّقالِ (٤)	

وهكذا ترى أن مثل هذا الشعر ، وإن كان بادي النحل في بعض أجزائه ، هو شعر الحرب بكل ما في الكلمة من معنى ، هو شعر الثورة الدموية ، والغضبية البدوية الكريمة ، هو الانتصار للشرف والإباء ، وهو الحلم في فورة البأس ،

(١) الشوس ج أشوس وهو الجرى .

(٢) الدرغ الدلاص : اللينة الملساء .

(٣) ذى زهاؤ : ذى عدد كبير .

(٤) ذباب السيف : حده .

والبأس فى انتفاضة الحلم . وما أشبه هذا المشهد بمشهد « دون دياغ » فى رواية السيد لكورنيل المسرحى الفرنسى الشهير ! وما أروع هذا البحر الشعرى فى مثل هذا الموقف ! وما أروع الألفاظ المتدافعة ، المكرورة فى تدافعها الحربى ، الموقعة على نبضات القلب ، التى تحمل فى طياتها هدير الهاوية ، وجلبة الموت العميقة ! . . .

وأما أيام ربيعة وتميم فمن أشهرها يوم ذى طلوح لبنى يربوع من تميم على بكر من ربيعة .

وأشهر أيام قيس فيما بينها يوم « داحس والغبراء » وقد قيل فيها شعر كثير وهى حرب السباق بين عبس وذبيان ، وكانت الحرب بينهما سجالاً وانتهت بصلح .

وقد اشتملت أيام المريقب ، وذى حساء ، واليعمرية ، والهباءة ، وفروق ، وقطن . ولهذا الحرب روايات كثيرة فى كتب الأدب منها أن الورْد العبسىّ زار يوماً حنْذيفة بن بدر الذببانيّ ، فعرض عليه حذيفة خيله ، فقال : ما أرى فيها جواداً مبراً . فقال له حنْذيفة : فعند من الجواد المبرّ ؟ فقال : عند قيس ابن زهير . فقال له : هل لك أن تراهنى عليه ؟ قال : نعم ! قد فعلت . فراهنه على ذكر من خيله وأثنى . ثم إنّ ورداً العبسىّ أتى قيس بن زهير وقال : إني قد راهنتُ على فرسين من خيلك ذكر وأثنى ، وأوجبت الرهان ، فقال : ما أبالى من راهنت غير حنْذيفة . فقال : ما راهنت غيره . فقال قيس ! إنك — ما علمت — لأنكد .

ثم ركب قيس حتى أتى حنْذيفة فوقف عليه ، فقال له حذيفة : ما غدا بك ؟ فقال : غدوتُ لأوضعك الرهان . فقال حذيفة : بل غدوت لتغلقه (١) . فقال قيس : ما أردت ذلك . فأبى حذيفة إلاّ الرهان . فقال قيس : أحيرك

(١) أغلق الرهان : أوجبه .

ثلاث خلال ، فإن بدأت واخترت قبلي ، فلي خلتان ولك الأولى . وإن بدأت فاخترت قبلك فلك خلتان ولي الأولى . قال حذيفة : فابدأ . قال قيس : الغاية من مئة غلوة^(١) . قال حذيفة : فالمضمار^(٢) أربعون ليلة ، والمجرى من ذات الإصا^(٣)د .

ففعلا ووضعوا السبق على يدي أحد بني ثعلبة بن مسعد . ثم ضمروا الخيل ، فلما فرغوا استقبال الذي ذرع الغاية بينهما من ذات الإصا^(٣)د . فأنهى الذرع إلى مكان ليس له اسم . فقادوا الخيل إلى الغاية وجعلوا السابق الذي يرد ذات الإصا^(٣)د ، وأجرى قيس داحساً والغبراء ، وحذيفة الخطار والحنفاء . وملاًوا البركة ماء ، وجعلوا السابق أول الخيل يكرع فيها . وأقام حذيفة رجلاً من بني أسد - وبنو أسد أحلاف ذبيان - في الطريق ، وأمره أن يلقى داحساً في الطريق ، فإن جاء سابقاً رد وجهه عن الغاية . فلما أرسلت الخيل سبقتها داحس سبقاً بيناً والناس ينظرون ، فلما هبط داحس في الوادي عارضه الأسدى فلطم وجهه فألقاه في الماء ، فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل . وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ . ثم عاد إلى الطريق ، واجتمع مع فرسي حذيفة ، ثم سقطت الحنفاء ، وبقى الخطار والغبراء . ثم إن الغبراء جاءت سابقة ، وتبعها الخطار ، ثم الحنفاء ، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله ، وأخبر الغلام قيساً بما صنع بفرسه . فطالب قيس بالسبق - وكان عشرين من الإبل - فأبت بنو فزارة أن يعطوهم شيئاً . فقالت

(١) الغلوة : الرمية بالنشابة .

(٢) المضار : وقت للأيام التي تضر فيها الخيل للسباق أو للركض أو العدو ؛ وتضميرها أن تشد عليها سروجها ، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحبها فيذهب رهلها ، ويشتد لحمها ، ويحمل عليها غلمان خفاف يجرئونها ، لا يعنفون بها ، فإذا فعل بها ذلك أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ، ولم يقطعها الشد .

(٣) ذات الأصا^(٣)د : فقيرة في حجر يجتمع فيها الماء ، وهي في ديار بني عبس .

بنو عبيس : أعطونا بعض سبقنا . فأبوا . فقالوا : أعطونا جزوراً ننحزرها ونطعمها أهل الماء ، فإننا نكره القالة في العرب . فقال رجل من قزارة : مائة جزور وجزور واحدة سواء ، والله ما كنا لنقرّر لكم بالسبق علينا ، ولم نسبق . فكان ذلك سبب دماء فيما بين القبيلتين ، ثم سبب حرب ضرّوس أبلّ فيها عنزة العبيسيّ بلاءً حسناً ، وقد انتهت بصلح قام على يدي الحارث بن عوف وهرم ابن سنان ، وقد مدحهما زهير بن أبي سلمى في معلقته التي أتى فيها على ذكر تلك الحرب ووبلائها^(١) .

وأما أيام قيس وكنانة فن أشهرها يوم الكديد لبني سليم (بطن من فيس عيلان) على كنانة . والكديد موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة . ومن أبطال ذلك اليوم الشاعر المشهور دريد بن الصمة . وأما أيام قيس وتميم فن أشهرها يوم رحرحان لعامر على تميم ، ورحرحان اسم جبل قريب من عكاظ ، ثم يوم شعب جبلة بنجد لعامر على ذبيان وتميم . وقد قال أبو عبيدة معمر ابن المثنى : « يوم جبلة أعظم أيام العرب » وذلك لما اتخذ في هذا اليوم من الخنكة والحكمة ، وسديد الرأي والحيلة وحسن التنفيذ . وقد وصف المعقر البارقى - وكان قد شهد الواقعة - ذلك اليوم المشهود ، وما أتى به الأبطال من جليل الأعمال ، في أبيات منها :

ضَرَبْنَا جَمِيلَ الْبَيْضِ فِي غَمْرِ لَجَّةٍ	فَلَمْ يَنْجُ فِي النَّاجِينَ مِنْهُمْ مَفَاخِرُ
هُوَ زَهْدٌ تَحْتِ الْعِجَاجِ لِعَامِرٍ	كَمَا أَنْقَضَ بَارِزًا قَتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُ
بُقْرَجٍ عَنَا كُلَّ تَغْرِ نَخَافُهُ	مُشِيحٌ كَسِرْحَانِ الْقَصِيْمَةِ ضَامِرُ
وَكُلُّ طُمُوْحٍ فِي الْعِنَانِ كَأَنَّهَا	إِذَا آغْتَمَسَتْ فِي الْمَاءِ فَتَخَافُ طَائِرُ

(١) عن كتاب « أيام العرب في الجاهلية » .

تلك أيام العرب ، وقد كانت من أشد دواعي الشعر الحماسي ، بل كانت ينبوع الملحمة الجاهلية الكبرى ، ومستوحى الفخر العربي في قديم عصوره . وقد قامت فيها النساء إلى جنب الرجال يشاركنهم أعمال بطولتهم ، ويقفن في مؤخرة الجيوش يصفقن بالدخوف ، وينشدن الأهازيج ، وينظمن أحياناً الشعر في وصف المعارك ، واشتهر منهن كثيرات من مثل « الهيفاء القضاية » القائلة :

الخيلُ تعلمُ يومَ الرُّوعِ إنْ هُزمتَ أن ابنَ عمرٍ ولدى الهيجاءِ يحمِّيها

(ب) موضوعات الحماسة الجاهلية :

دار الشعر الحماسي في الجاهلية حول وصف المعارك ، ووصف أعمال البطولة ، ثم وصف الخيول والإبل ، وأدوات الحرب وما إلى ذلك . وقد برع الجاهليون في وصف المعارك وتصويرها حية نابضة مملوءة بالهول ، كما برعوا في وصف أدواتها . فالميادين فسيحة الأرجاء ، وأحياء العرب في لغظ وضوضاء ، يقوم فيها المنادون ينادون إلى الحرب ، ويدعون إلى القتال ، لأن الشرف قد ديس ، أو لأن الدم المهرق يطلب الثأر ، أو لأن المراعى قد اغتصبت ، أو لأن المواشى قد سيقت ، أو لأن فرس فلان قد سبقت فرس بعض أبناء القبيلة ، أو لأسباب أخرى ألحقت للقبيلة عاراً ، ونشرت في الحى ذلاً وشفاراً . يا للعار ! يا لبنى فلان ! الحرب ! الحرب ! . . . وما هي ذى القبيلة كلها في غضب وثورة ، فالنساء في زغردة ، والأطفال في دمدمة ، والرجال في همهمة ، والصدور في انفجار ، والخيول في صهيل ، تضرب الأرض بالخوافر ، وترفع الرؤوس في عتفوان ، والإبل في هدير وعجيج ، والهوادج قباب تلو قباب ، والحسان فوق الهوادج بدور، وأناشيد فخر وعزة قومية ، والفرسان على الصهوات نسور وعقبان ، والهندوانية بثارة تحمل في شفارها الموت والدمار ، والعوالى غابات ممتدة فوق الرؤوس ، تتلوى في شغف إلى امتصاص الأرواح ، والآمال فوق

الرياح أعلام خفاقة . القبيلة جماهير جماهير ، والأحلاف جماهير جماهير ،
 والمقاتلة جماهير جماهير ، والهول والموت جماهير جماهير ، يبدو رئيس القوم على
 فرس أخف من النسيم ، فيذهب ويجيء ، ويتفقد ويستعرض ، ثم ينطلق إلى
 ساحة الوغى ، وإذا الفرسان وراءه كتائب كتائب ، وإذا صدى الحوافر ،
 وصليل الأسلحة ، وإذا صفعات الأخطاف زمزمت تشق الغبار وتملاً الأجواء ،
 يلتقى الجيشان فيتصاولان ويتجاولان في كر وفر ، وإذا الرياح في الصدور
 والنحور ، والسيوف في الأعناق والرؤوس ، والدماء تسيل على الرمال صبغاً
 قرمزيّاً ، وتتناثر على صدور الخيول فتحمم ، وعلى وجوه الأبطال فتزيدهم
 شراسة وهياجاً ، وإذا السماء اربداد وقساطل ، تشقها الارتجازات والزرغرات
 شقاً . ثم ينجلي الموقف عن عدو مهزوم ، وعن شرف مصون ، فيعود رجال
 الحرب زرافات زرافات ، وإذا القبيلة وأحلافها في عيد ، ثم في تأهب لعراك
 جديد .

وهكذا كان الجاهليون يصفون الأبطال بالشدة والشجاعة والبأس ،
 ويصفونهم بقوة الساعد ، وقوة الشكيمة ، والعناد في الصدام ، ورجاحة العقل في
 الكر والفر ، والحيلة في مواقف الشدة ، والعفة في تقاسم الغنائم ، والبديهة في
 المآزق الضيقة ، والكرم في كل حال . وكانوا يصفون الخيول بالسرعة والحفة
 وشدة الانقضاخ ، ويشبهونها بالعقبان والظباء والنعام والرياح ، ويستحسنون فيها
 الضمور ، والملاسة ، ومتانة الساقين ، وقوة الجنين ، وطول الذنب ، واستقامة
 العسيب وما إلى ذلك مما يرجع إلى النشاط والسرعة . وكانوا يصفون عدة الحرب
 بما كان يصفها به غيرهم من الشعوب القديمة ، فيذكرون للسيف بلاءه في حز
 الرقاب ، وقصم الظهور ، وقطع الدروع ، وذكروا للرمح التماع سنامه ، وأنه أزرق
 كأنياب الغول ، يحترق الصدور ويدهم النحور .

(٢) ميزات الحماسة الجاهلية :

قال الدكتور زكي المحاسنى : « طول مشاهدة العرب للمعارك أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها ، وهل كانت المعارك في حياة العرب إلا مناط عزم ومدار فخرهم ، يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت . لقد رخص كل شيء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل . وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة ، فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب . على أنهم لم يطرحوا سداد الرأي ، وإنما كانوا في حروبهم يقلبون أوجهه ليصلوا إلى أيها الأسد ، ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولاً يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهي إلى أواخره كما تدعو الحوادث ، فليس لديهم قصائد تمسك بأوائلها حتى تبلغ نهايتها ، فتريك صورة معركة منذ بدء الواقعة إلى ختامها ، وإنما هي فترات شعر في لمحات وصف مقتضبة متجزئة ، يبين فيها الروح العربي البياني الذي انطوى ، منذ كان ، على الاختصار في سرد الصور ، أو الزهد في التقصي ، ونحن إذا وجدنا منها مطولات في موضوع الحرب ووصف المعارك ، فإننا لا نجد فيها وحدة متناسقة في الموصوفات المتشابهة . ولقد يتاح لنا بعد عصر الجاهلية أن نلم بقصائد كاملة ، يصف شعراؤها المعارك التي شهدوها أوقيلت لهم ، ولكنها قليلة ، وسبب ذلك حب الانطلاق من قيد المعاني والانفلات من استقصائها ، لضيق القافية الراتبة واتساع المعاني المتوالدة ، إذ كان يؤثر الشاعر العربي الخروج من موضوع إلى آخر ، ومن صورة لم يكمل وصفها إلى غيرها من الصور . . . ولقد أحاط شعراء الجاهلية بأوصاف السلاح وعدة الحرب بما لم تحط به أمة من أمم الحرب . فحدقوا الكلام عليها ، وأجالوا البيان في وصف آلاتها ، وأكثروا من العناية بتصويرها وتصويرها ، حتى ألموا بدقائقها وأشكالها . وكان هذا الشعر الواصف للعدة والسلاح شغل شعراء العرب الشاغل ، ودأبهم في

استنباط التشابه ، وتوليد أفانينها واستقصاء روائعها ، حتى صار ما قالوه في أوصاف السلاح وعدة القتال تراثاً أدبياً في شعرنا العربي نكاثر فيه آداب الشعوب . . . وإنما إذا تتبعنا ألفاظ لغة العرب وتفحصنا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها في المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة — كما عرفت على رسلها في الجاهلية قبل أن تستولى عليها الكلفة في تتابع العصور الإسلامية — وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال ، في أروع بيانها وأبرع تشابيهها^(١) .

(د) نماذج من شعراء الحماسة الجاهلية :

إن من استقرى الشعر الجاهلي وجد أن للحماسة فيه محلاً واسعاً جداً ، وشعر أن الحماسة ملء الأفواه والأسماع ، وذلك أن الشعراء لذلك العهد كانوا ينهضون ، كسائر الناس ، بعبء القتال ، وقد عدّوه جزءاً من حياتهم ، وبات من العار لديهم أن يموت المرء حتف أنفه ، كما بات من غدتهم اليومي أن يتحدثوا عن القتال ، وأن يصفوا المعارك ، وأن يتفاخروا بالأيام . وإنه ليطول بنا المجال لو أردنا ذكر أسماء شعراء الحماسة ، فكيف بنا لو أردنا الكلام على شعرهم ، ولذلك سنقتصر على بعضهم ، وفي ذكر القليل غنى عن التفصيل والتطويل .

الفنل الزماني :

كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، وقد شهد حرب بكر وتغلب وله من العمر نحو مائة سنة . وإليك أبياتاً من قصيدة قالها في حرب البسوس . وذلك أن بكر بن وائل بعثوا إلى بني حنيفة في حرب البسوس يستنصرونهم ، فأمدوهم به وبقومه بني زمان وعدادهم في بني حنيفة ، فقال :

(١) شعر الحرب في أدب العرب ، ص ٢٧ ، ٣٢ .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي دُهَلٍ وَقُلْنَا الْقَوْمَ إِخْوَانُ
 عسى الأيَّامُ أن يَرْجِعَ نَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
 فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ عَرِيَانُ
 وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدِّ وَإِنْ دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
 مَشِينَا مِشِيَةَ اللَّيِّ مِثْ غَدَا ، وَاللَيْثُ غَضْبَانُ
 بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينُ وَتَخْضِيعُ وَإِقْرَانُ
 وَطَعْنٍ كَفَمِ الزُّقِّ غَدَا وَالزُّقُّ مَلَانُ
 وَبَعْضُ الْجِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ لِلذَّلَّةِ إِذْعَانُ
 فِي الشَّرِّ نَجَاةٌ = يَنْ لَا يُنْحِيكَ إِحْسَانُ

هذا شيخ جاهلي ، قد تقلبت عليه الأيام بجلوها ومرها ، ودارت عليه دوائر
 الزمن ، وجال في الحروب جولات وجولات ، وكان السيف لساعده نصيراً ،
 وكان الرمح لعزمه ظهيراً ؛ وقد دعي للحرب وهو في شيخوخته فلبى الدعوة لأن
 الشر قد صرح ، ومشى في قومه مشية الليث الجائع الغضبان ، ونظم في ذلك
 شعراً حربياً يحمل في وزنه وقافته صدى الهجوم الصاعق ، ويحمل في ألفاظه
 حكمة الشيخوخة ، وصرامة البطولة ، وعنفوان الجاهلية .

الحصين المري :

والحصين بن الحمام المري شاعر جاهلي وفارس مذكور يعد من أوفياء
 العرب . وما يروى من أخباره أنه كان ناس من بني قضاة يقال لهم بنو سلامان
 ابن سعد حلفاء لبني صرمة بن مرة ونزولاً فيهم ، وكان بنو حميس بن عامر
 حلفاء لبني سهم بن مرة ، وكان في بني صرمة يهودى من أهل تيماء يقال له جهينة ،
 وكان في بني سهم يهودى من أهل وادي القرى يتاجر في الحمر ، وكان بنو جوشن

أهل بيت من عبد الله بن غطفان جيراناً لبني صرمة ، وكان يُتشاءم بهم ، ففقدوا منهم رجلاً ، يُقال له حُصين كان يقطع الطريق وحده ، فكانت أخته وإخوته يسألون الناس عنه وينشدونه في كل مجلس وموسم ! فجلس ذات يوم أخ لذلك المفقود في بيت ذلك اليهودي المجاور لبني سهم يتباع خيراً ، إذ مرت أخت المفقود تسأل عن أخيها ، فقال لليهودي : نشدتك الله ودينك هل تعلم لأخي علماً؟ فقال : لا وديني لا أعلم . فلما مضى تمثل ذلك اليهودي :

لعمرك ما ضلت ضلال ابن جوشن حصة دليل ألقيت وسط جنادل

وأراد أن الحصة يمكن أن ترجع وأن هذا لا يرجع أبداً . فلما سمع أخوه ذلك تركه حتى إذا أمسى الليل قتله . فأتى الحصين وقيل له إن جارك اليهودي قتله أبو جوشن جار بني صرمة . فقال : اقتلوا اليهودي الذي في جوار بني صرمة فأتوه فقتلوه . فوقع بذلك الشر بينهم وقتلهم الحصين وهزمهم ، وكف يده بعد ما أكثر فيهم القتل . وأبي بنو سلامان أن يكفوا عن القوم حتى أئخذوا فيهم وأجلبت بنو ذبيان وبنو محارب بن خصفة على بني سهم مع بني صرمة . فأقاموا على الحرب فظفر بهم الحصين وهزمهم وقتل منهم ، وقال هذه الأبيات :

فَقُلْتُ لَهُمْ يَا آلَ ذَبْيَانَ مَا لَكُمْ تَفَاقَدْتُمْ ، لَا تُقَدِّمُونَ مُقَدِّمًا (١)
 وَمَوَالِيكُم مَوَالِي الْوِلَادَةِ مِنْهُمْ وَمَوَالِي الْيَمِينِ حَابِسٌ قَدْ تَقَسَّمَا (٢)
 وَقُلْتُ تَبَيَّنَ هَلْ تَرَى بَيْنَ خَارِجٍ وَنَهَى الْأَكْفِ صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمًا (٣)

(١) تفاقدم : جملة اعتراضية ، وهي دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً . مقدماً : تقدماً أي إقداماً .

(٢) المولى يطلق على معان كثيرة ، وقسم الشاعر في هذا البيت الموال إلى بني عم وهم الذين سماهم مولى الولادة ، وإلى حليف وهو من انضم إليك فمز بعزك وهو الذي سماه مولى اليمين لأنه يقسم له عند الانضمام . . يقول : تداركوا الذين يتسبون بولاء النسب وولاء الخلف فكل منهم ذو حيس على الشر متقسم الحال مغار عليه .

(٣) خارج : ماء لبني عبس . نهى الأكف : موضع . الصارخ : المستغيث . الأعجم : الذي لا يفصح .

مِنَ الصُّبْحِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ لَا تَرَى
 عَلَيْنَهُنَّ فِتْيَانٌ كَسَاهُمُ مُحَرَّقٌ
 وَكَانَ إِذَا يَكْسُو أَجَادَ وَأَكْرَمًا (٢)
 وَمَطْرِدًا مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ مُبِهِمَا (٣)
 وَإِنْ كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ مُظْلِمًا (٤)
 بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا وَمَعْصَمًا
 عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْقَى وَأَظْلَمًا (٥)
 عَمَدْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَحْزَمًا
 وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشِيَةِ الْمَوْتِ سَلَمًا
 مِنَ الصُّبْحِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ لَا تَرَى
 عَلَيْنَهُنَّ فِتْيَانٌ كَسَاهُمُ مُحَرَّقٌ
 صَفَائِحَ بُصْرَى أَخْلَصَتْهَا قِيُونُهَا
 وَلَمَّا رَأَيْنَا الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ
 صَبْرُنَا وَكَانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً
 نَفَلَقُ هَامًا مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ
 وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَدَّ لَيْسَ بِنَافِعِي
 فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ

الحُصَيْنِ بْنِ الْحَمَامِ الْمُرِّيِّ يَحَارِبُ أَيْضًا لِأَنَّ دَاعِيَ الشَّرَفِ دَعَاهُ إِلَى ذَلِكَ ،
 وَعِنْدَهُ الْمَيْتَةُ الْحَسَنَةُ عَلَى مَا يَتَعَقَّبُهَا مِنَ الْأَحْدُوثةِ الْجَمِيلَةِ آثَرُ مِنَ الْعَيْشَةِ الذَّمِيمَةِ
 عَلَى مَا يَخَالِطُهَا مِنَ الذَّلَّةِ . إِنَّهُ يَحَارِبُ بِحِزْمٍ وَجِلْدٍ ، وَهُوَ يَصِفُ حَرْبَهُ بِإِيحَازٍ
 شَدِيدٍ ، وَإِذَا الْحَرْبُ عِنْدَهُ خَيْلٌ مَسْوَمَةٌ كَثِيرَةٌ الْعَدَدِ ، عَلَيْهَا فِتْيَانٌ بِدِرْعٍ
 دَقِيقَةِ الصَّنْعَةِ وَسَيْوْفٍ بَتَارَةٍ ، وَتَفْلِيْقٍ لِهَامَاتِ الْأَبْطَالِ ، وَإِذَا شَعْرَهُ حَكَايَةَ حَالِ ،

(١) الخارجي من الخيل هو الذي برز وأبواه ليسا كذلك . المسوم : المعلم بعلامة يعرف بها
 يشير بهذا البيت إلى كثرة الخيل والرجال .

(٢) محرق : أحد ملوك لحم حرق قوماً فسمى محرقاً .

(٣) الصفائح : السيوف ، وقد نصب على أنها مفعول « كسا » في البيت السابق . بصرى :
 موضع بالشام تباع فيه السيوف . القيون : الحدادون . المطرد : الدرع المتتابعة النسيج . يقول :
 كسام محرق سيوف بصرى التي أجيد صنعها وكسام أيضاً دروعاً متتابعة النسيج غفيات الحلقات
 لدقة صنعها .

(٤) وإن كان يوماً : أي وإن كان ذلك اليوم يوماً . يقال : أراه الكواكب نهاراً ،
 لاحتجاب الشمس نيه من الغبار أو لشدة الأمر وعظم الخطب .

(٥) يقول : نشق رؤوس رجال أعزة علينا ولكن الذي حملنا على قتالهم إنما هو ظلهم وعقوبتهم .

وإبداء لآرائه في الحياة والموت ! وإذا هو في كل ذلك شاعر بلوىٍ مستميت
في سبيل الشرف والإباء .

المهلهل :

هو عدى بن ربيعة التغلبي ، خال امرئ القيس الشاعر المشهور ، وهو بطل
من أبطال حرب البسوس ، وقد أسر في نهاية الأمر ومات في أسره . وأكثر شعره
في رثاء أخيه كليب وفي توعد الأعداء وما إلى ذلك . وأدبه هو أدب العاطفة
التي تغالى في وصف الأخ ووصف الهول ، وتعتمد التكرار والتهديد الطفولي
وطلب المستحيل في غير منطوق ولا تحليل ، وذلك كله تارة في جو ملحمي من
الشعر الحربي ، الذي تتقاذف ألفاظه ، ويتعالى دوى حوافر أفراسه ، وطوراً
في أجواء من الميوعة هي موسيقى خمر ونساء . وأدب المهلهل هو أدب حرب
وحماسة ، وأدب عاطفة وتكرار ، وأدب سهل الأسلوب وسهل التعبير . والمهلهل
هو بطل في الحرب وفي اللهو ، وقد نسجت حوالبه أسطورة الزبير ، فلا عجب
أن دس في شعره أبيات كثيرة ليست له ، قد تكون سبباً من أسباب الضعف
والهلهلة والإسفاف في أدبه .

الحماسة في المعلقات :

إن من يقرأ المعلقات يلمح أن فيها ناحية ملحمية كما في سائر الشعر
الجاهلي ، وإننا سنجتري بذكر ثلاث من تلك المعلقات ، وفيها شاهد كاف
على ما نقول وما نحن في صدده : معلقات عمرو بن كلثوم ، والحارث بن
حزرة ، وعنزة بن شداد .

عمرو بن كلثوم هو أبو الأسود بن مالك التغلبي ، وأمه ليلي بنت المهلهل .
نشأ عزيز الجانب أنوفاً معجباً بنفسه أشد الإعجاب ، وساد قومه وهو ابن

خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفراً . ولما قامت المشاحة بين بكر وتغلب واحتكموا إلى عمرو بن هند ، وقف عمرو بن كلثوم مدافعاً عن قومه ، وما إن فرغ من إنشاد قصيدته حتى ظهر له أن هوى الملك مع بكر ، فانصرف وفي نفسه ما فيها . ثم خطر في نفس بن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها عمرو بن كلثوم ، فدعاه هو وأمه ليلى . وأغرى هنداً أمه أن تستخدمها في قضاء أمر ، فصاحت ليلى : « وإذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه . ثم رحل تَوّاً إلى بلاده بالجزيرة الفراتية ، وأضاف إلى معلقته قصبا بين فيه سخطه على عمرو بن هند .

وإنا لنشعر ، ونحن نقرأ معلقة ابن كلثوم ، أننا أمام مشهد يشبه مشهد أخيل يخاطب هكتور في لهجة الناغم ، في لهجة الشجاع الباسل الذي يتدفق تدفق السيل الجارف ، في لهجة من تملأ من المجد وقام في قومه مقام السيد ، وحمل في نفسه ماضياً زاخراً بالعزة ، حافلاً بالقوة ، وحاضراً تتعاقب فيه السيوف والرماح وتجرى فيه الدماء سيولاً . ومستقبلاً يقوم على جماجم الأعداء صروحاً تظلل الأبناء إلى أبد الدهر .

وإننا نلمس في هذه المعلقة أن أدب ابن كلثوم هو أدب الثورة والجماح ، أدب الانفعال الشديد الذي لا يجد منه العقل ، فقصيدته اندفاع على غير هدى ، وعلى غير استقامة في التفكير والتنسيق . وأفكاره متدافعة ، متقاذفة ، مكررة ، تسبح في عالم من الخيال الجامح الذي يغلو ويفرق في الغلو .

أما الحارث بن حلزة اليشكري البكري فهو الذي وقف في وجه عمرو بن كلثوم يوم الاحتكام إلى عمرو بن هند ، ودافع عن قومه بقصيدته المملوءة من المعلقات ، والتي وصف فيها الحرب ومزج في الوصف صهيل الخيل بصلصلة الصوارم ، بعجيج الأبطال ، بأصوات الماشية ، بثورة الطبيعة كلها . وشعر ابن حلزة خطابي ملحماً ، يرمي إلى الإقناع ، ويعتمد سرد القصص البطولي ، وذلك

في جو من الموسيقى الشديدة الوقع ، التي تدوى في هدوء وانطلاق ، وتماشى العقل والشعور والخيال ، فتزيدها قوة وعمق تأثير .

وعنتره بن شداد : هو عنتره بن شداد العبسي أحد فرسان العرب وأغربتها وشعراؤها المشهورين .

ولما كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان كان عنتره قائد الكتائب وخائض الغمرات ، وكان البطل الذي تناولت الأسطورة أعماله فجعلت منه المثال الأعلى في الفروسية والبطولة . وقد حفز عنتره على أعمال البطولة ، فوق ما حفزه ، رغبته في استرضاء عبلة ، ومحوسواد الجلد ببيض الفعّال . وشاخ عنتره بن شداد وهو أبدأ رجل الخيل والسيوف والرماح ، وقد مات قتلاً نحو سنة ٦١٥ للميلاد .

[وَرَدَ فِي كِتَابِ «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ما يلي : «كان عنتره من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده . وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سابه رجل من بني عبس ، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وعيره بذلك وبأنه لا يقول الشعر . فقال له عنتره : والله إن الناس ليتراقدون بالطعمة فما حضرت مرقد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط . وإن الناس ليدعون في الغارات فيعرفون بتسموئهم ، فما رأيناك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط . وإن اللبس يكون بيننا ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فيصل ، وإنما أنت فقع نبت بقرقر وإني لأحضر البأس ، وأوافي المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفضل الخطة الصمحاء ، وأما الشعر فستعلم . وأنشد معلقته التي نورد طرفاً منها :

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتْرَدِمٍ ؟ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ ؟

وَعِمِّي صَبَاحاً دَارَ عِبْلَةَ وَأَسْلَمِي
 أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثِمِ
 عَسِراً عَلَيَّ صِلَابُكَ ابْنَةَ مَحْرَمٍ
 زَعَمَ لِعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَحْرَمٍ
 مِنِّي - بِمَنْزِلَةِ الْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ
 بِعُنَيْزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْغَيْلِمِ
 زُمَّتْ رِكَابُكُمْ بِلَيْلٍ مُظْلِمٍ
 وَسَطَ الدُّيَارِ تَسْفُحُ حَبِّ الْخَمْخَمِ
 سَوْدٌ كَخَافِيَةِ الْغُرَابِ الْأَسْحَمِ
 عَذِبٌ مُقْبَلُهُ لَذِيذُ الْمَطْعَمِ
 سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الْقَمِ
 غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمِ
 فَتَرَكْنَا كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرْهِمِ
 يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
 غَرْدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرْتَمِ
 قَدَحَ الْمَكْبَبِ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ
 وَأَبَيْتُ فَوْقَ سَرَاةِ أَدْهَمِ مُلْجَمِ
 نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ نَبِيلِ الْمَحْرَمِ
 لُعْنَتْ بِمَحْرُومِ الشَّرَابِ مُصْرَمِ

يَا دَارَ عِبْلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي
 حَيِّتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
 حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ
 عَلَّقْتُهَا عَرَضاً وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا
 وَلَقَدْ نَزَلْتِ - فَلَا تَطْنِي غَيْرَهُ
 كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا
 إِنْ كُنْتَ أَزْمَعْتِ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا
 مَا رَاعِنِي إِلَّا حُمُولَةُ أَهْلِهَا
 فِيهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً
 إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاصِحِ
 وَكَأَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ
 أَوْ رَوْضَةَ أَنْفَاءٍ تَضْمَنَ نَبْتَهَا
 جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بَكْرٍ حُرَّةٍ
 سَحًا وَتَسْكَابًا فَكُلُّ عَشِيَّةٍ
 وَخَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحِ
 هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعُهُ بِذِرَاعِهِ
 تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ
 وَحَشِيَّتِي سَرَجٌ عَلَى عِبْلِ السَّمْوِيِّ
 هَلْ تُبْلِغُنِي دَارَهَا شَدْنِيَّةٌ

خَطَّارَةٌ غِيبَ السُّرَى زِيَّافَةٌ
 إِنْ تَعْدِيكَ دُونِي أَلْفِنَاعَ فَإِنِّي
 أَنْتَنِي عَلَىٰ بَمَا عَلِمْتِ فَإِنِّي
 فَإِذَا ظَلِمْتِ فَإِنَّ ظَلَمِي بِاسِلٌ
 وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنْ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا
 بَرَّجَاجَةٌ صَفْرَاءُ ذَاتِ أُسْرَةٍ
 فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ
 وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصُرُ عَنْ نَدَى
 هَلَّا سَأَلْتِ الْخَيْلَ بِأَبْنَةِ مَالِكٍ
 إِذْ لَا أَزَالُ عَلَى رِحَالِهِ سَابِحٌ
 طَوْرًا يُعْرَضُ لِلطَّعَانِ وَتَارَةً
 يُخَيِّرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقَائِعَ أَنْتَنِي
 فَإِنِّي مَغَانِمٍ لَوْ أَشَاءَ حَوْبَتُهَا
 وَمُدَجَّجٍ كَرَّةِ الْكُمَاةِ نَزَالُهُ
 جَادَتِ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْمَةٍ
 فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ
 وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاحُ نَوَاهِلٌ
 فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا
 لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ

تَطِئُ الْإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مِيثْمٍ
 طَبُّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْتِمِ
 سَهْلٌ مُخَالَفَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ
 مَرُّ مَذَاقُهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ
 رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
 قُرْنَتْ بِأَزْهَرَ فِي الشَّمَالِ مُقَدِّمِ
 مَالِي ، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمِ
 وَكَمَا عَلِمْتِ شَائِلِي وَتَكْرِمِي ...
 إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةٌ بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
 نَهْدِ تَعَاوُرَهُ الْكُمَاةُ مُكَلِّمِ
 يَاوِي إِلَى حَصْدِ الْقَيْبِيِّ عَرْمَمِ
 أَغْشَى الْوَعْيَى وَأَعِيفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
 فَيَصُدُّنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكْرِمِي
 لَا مُعِينَ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
 بِمُشَقِّفِ صَدَقِ الْكُؤُوبِ مُقَوِّمِ
 لَيْسَ الْكَرِيمِ عَلَى الْقَنَا بِمُحْرَمِ
 مِنْنِي وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
 لَمَعَتْ كِبَارِقِ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ
 يَتَدَامِرُونَ كَرَّرْتُ غَيْرَ مُدَمِّمِ

يَدْعُونَ عَنَتَرَ وَالرَّمَاحُ كَانَتْهَا
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِغُرَّةٍ وَجْهِهِ
فَازُورٌ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلِدْبَانِهِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةَ أَشْتَكِي
وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا
ذُلُّ رِكَابِي حَيْثُ شِئْتُ ، مُشَابِعِي
وَلَقَدْ خَشِيتُ بِيَانَ أُمُوتَ وَلَمْ تُكُنْ
الْشَائِمِي عِرْضِي وَلَمْ أَشْتِمُهُمَا
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا
أَشْطَانُ بَعْرِ فِي لَبَانِ الْأَذْمِ
وَلِدْبَانِهِ حَتَّى تَسْرِبَلَ بِالذَّمِ
وَشَكَا إِلَى بَعْبَرَةَ وَتَحَمُّمِ
وَلَكَانَ لَوْ عِلْمَ الْكَلَامِ مُكَلِّمِي
قِيلُ الْفَوَارِسِ : وَيَكُ ، عَنَتَرَ أَقْدَمِ
قَلْبِي ، وَأَخْفِزُهُ بِأَمْرِ مُبْرَمِ
لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمُّمِ
وَالنَّاذِرِينَ إِذَا لِمَ الْقَهْمَا دَمِي
جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرَقْشَمِ

وإننا ، ونحن نقرأ شعر عنتر بن شداد ، نشعر أننا أمام امرأة هي أشبه
شيء بهيلانة التي كانت سبب الحرب بين الإغريق وطروادة : وأنا أمام عبلة
التي يثور لأجلها البطل العربي ، ويحارب في سبيلها ، ويسفك الدماء أنهاراً ،
وأننا أمام بطل هو أشبه شيء بأخيل طيار الخطى ، الذي يعتزل الحرب لخلاف
نشب بينه وبين أغاممنون ويترك قومه عرضة للتلف ؛ وأنا أمام عنتره يعتزل
الحرب لخلاف نشب بينه وبين قبيلته ، لخلاف مرده إلى أن عنتره ابن أمة
لا يحق له الانتساب إلى قبيلته ولا يحق له الاقتران بابنة عمه ، ولا يحق له أن
يكون حرّاً . ولما اشتد الأمر على عبس وكاد يدركهم التلف صاحوا به : « ويك
عتر أقدم ! » فيقدم عنتره حرّاً ، ويبدد جيوش الأعداء ، وينشر الذعر في
البلاد ، على جواد يكاد يتكلم ، وبسيف يجز الرؤوس ، ورمح يخرق الصدور ،
ويطير القلوب .

وترى في عنبرة جميع الصفات التي كان يتحلى بها فرسان القرون الوسطى من شجاعة وشرف وقاتل في سبيل هدف أعلى ، ومناصرة للضعيف ، وحب شديد عنيف لفتاة كريمة يعمل جهده في إرضائها ، وهو شاعر فياض القريحة يلهب حماسه ، فنظم الشعر يصف واقعه ، وإذا نفّسه يقترب من نفس الملاحم ، فهو يجعلنا في جو ملحمى أبطاله سيف الشاعر ورحمه وساعده ، وخوارقه أعمال الشاعر التي يضحّمها الخيال الخلاق ، ويغشى قصصها بالصور والألوان ، فتتوالى على السمع والبصر في إيجاز بعيد عن التفصيل ، وفي موسيقى شديدة الوقع ، ولغة وثابة فيها عزة الشاعر وثورته ومزاجه العصبي .

الحماسة في العهد العباسي

(١) دواعي الحماسة العباسية :

وقفت الفتوح في العهد العباسي ، وأخلد الناس إلى الأمن والراحة في أغلب الأحيان ، ولولا بعض الحروب والفتن لخدمت جذوة الشعر الحربي في العالم العربي ، أما تلك الحروب والفتن فرجعها إلى ما يلي .

قامت الدولة العباسية في أول عهدها على القوة ، واستعانت بالفرس خاصة والشعبوية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ، فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصرت شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس في صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد تحول وجه الدولة عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطاقي ، وهكذا حاكمي العباسيون الأكاسرة في تنظيم دولتهم ، ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال ، ففزعوا المناصب وأكثروا من الدواوين ، وأقاموا على الأقاليم البعيدة عمالاً يأمرؤن وينهون، من مثل جعفر بن يحيى البرمكي ، الذي ولاه الرشيد المغرب كله ثم أنبار إلى إفريقية ، وأخيه الفضل بن يحيى الذي تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك في جندهم ، فكان في الجيش فرقة خراسانية ، وكان في الجيش أيضاً عدد كبير من الفراغنة أي الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لحوفه على

نفسه من جنده ، فكانوا على الخلافة والدولة وبالاً : وقد عملوا على ذلك أركانها وعلى نشر القوضى في البلاد .

وتم تخل البلاد . في عهد بنى العباس ، من حروب وقتن . أما في الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية مؤطى أبي مسلم الخراساني ، والزنادقة في العراق وفارس . والعلويين مع ابن طباطبا ، والخرمية^(١) مع بابك ، وغيرهم من الذين قاموا في وجه الأمن والسلام . وأما في الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشوائق ، وهي الحملات والغزوات في الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر في ذلك أبو جعفر والمهدى والمعتمد ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

وهكذا جرت في العهد العباسي مواقع تشبه أيام الجاهلية من حيث إنها أصبحت مستوحى الشعراء وموضوع أناشيدهم الحربية . ومن ذلك وقعة « أرشق » للأفشين على بابك الخرمي ، وقد تغنى بها أبو تمام وأشاد فيها بذكر الأفشين ؛ وكذلك وقعة عمورية للمعتمد على ملك الروم تيوفيل ؛ وثورة الزنوج ودخولهم البصرة ، وقد سجل ابن الرومي تاريخها في شعره ، إلى غير ذلك من المواقع البرية والبحرية التي سنأتى على ذكرها في دراسة كل شاعر .

(ب) موضوعات الحماسة العباسية وميزاتها :

دار الشعر الحماسي في العهد العباسي حول وصف تعبئة الجيوش ، وزحفها ، ووصف الأسلحة والخيل والأساطيل والنصر وفرار العدو ، وما إلى ذلك . وقد تتبع الشعراء في هذا العهد أساليب الأقدمين ومعانيهم ، وزادوا على ذلك أن مزجوا الحكمة بالتصوير الفني وألّفوا بين الوصف وحسن التعليل ، واهتموا للصياغة اهتماماً خاصاً ، كما اهتموا للتزيق والتحويل في الوصف والتصوير .

(١) ظهر بابك الخرمي في عهد المأمون نحو سنة ٧١٨ م .

(ح) نماذج من الحماسة العباسية :

اشتهر كثيرون في الشعر الحماسي لهذا العهد ، وإننا سنتنصر على ذكر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي .

أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي ، وقد اهتم للحروب والفن التي نشبت في أيامه في شرق العراق وفي غربه ، ومن أهمها الحرب التي دارت بين بابك الخرمي والمعتمم . وقد خلع بابك الطاعة واعتصم في أرض البذ وإقليم أذربيجان ، فسير إليه المعتمم قائده الأفشين عملاً بوصاية أخيه المأمون قبل موته ، فسار إليه بجيش حسن الأهبة . ولما التقى الجيشان جرت بينهما مناوشات مختلفة لم تمكن أحدهما من الآخر ، إلى أن كان يوم « أرشق » فالتحم الجيشان التحاماً شديداً ، ولاذ بابك بالفرار فتبعته جماعة الأفشين وأدركته ليلاً ، فهجم الأبطال على الأبطال ، واصطدم الرجال بالرجال ، إلى أن افتر الصباح ، والمعركة لا تزال حامية الوطيس ؛ وامتد النهار إلى أن كان الزوال ، فسقط من جماعة بابك عدد كبير وتشرد الباقيون ، وقبض على بابك وقيد إلى المعتمم مغلولاً ، فقتل شر قتلة . واستقبل الأفشين أحسن استقبال ، وأدخل إلى القصر في اعتزاز ، وبذلت له الأموال والجواهر ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه .

وقد نظم أبو تمام في فتنه بابك الخرمي شعراً كثيراً ، من أروعها قصيدة لامية قالها في انتصار الأفشين ، وصور حال الناس القلقة من جراء بطش بابك وسطوته في البلاد ، ثم راح يصف يوم أرشق وما جرّ من الوبال على ذلك الداهية الذي مات المأمون وهو عاجز عنه ، والذي دوّخ البلاد بجيش جمعه من الترك والفرس وكل من نعم على بني العباس ؛ وراح أبو تمام يتتبع الموقعة ، ويحدد زمانها ومكانها بدقة ، ويذكر حركات الجيشين وقد استبسلا استبسلاً عظيماً ، ويتدفق مع المسلمين تدفقاً عاطفياً جباراً ، ويرسل مع كل لفظة حمماً من بركان

نفسه ، ويحمل كل عبارة ما لا تطيق من المعاني الحربية الشديدة ، ومن الأخيـلة الضخمة ، ومن الموسيقى الهويلية ، ومن المقارنات اللفظية والمعنوية المؤثرة ، ويقول :

يا يَوْمَ أَرشَقَ كَنتَ رَشَقَ مَنِيَّةٍ لِلخَرمِيَّةِ ، صائِبَ الآجالِ
أَسْرَى بَنو الإِسلامِ فِيهِ وأذْجَوا بِقُلوِبِ أَسدِ فِي صَدورِ رِجالِ
لَمَّا رَأَهمُ بِأَبْكَ دُونَ المُنَى هَجَرَ الغَوايَةَ بَعْدَ طَولِ صِيالِ
يَومٌ أَضَاءَ بِهَ الزَّمانُ وَفَتَحَت فِيهِ الأَسِنَّةُ زَهرَةَ الآمالِ
وَسَروا بِقارِعةِ البِياتِ فَزَحزَحوا بِقِراعِ لا صَليفٍ ولا مُخْتالِ
نَزَلَتِ مَلائِكةُ السَّما عَليَهِم لَمَّا تَداعى المُسلمونَ : نَزالِ
لَمَ يُكسُ شَخْصُ فَيُثَّهُ حَتى رَمى وَقَتُ الزَّوالِ نَعيمَهُم بِزَوالِ
غَالِبُذُ أَغْبِرُ دَارِسُ الأَطالِ بَيدِ الرَّدَى أَكلُ مِنَ الآكالِ
أَلوتُ بِهِ ، يَومَ الخَميسِ ، كَتابِ أَرسَلَنهُ مِثلاً مِنَ الأمثالِ
كَمَ صارِمٍ عَضِبَ أَنافَ عَلى فَتى مِنْهُم لَآعِباءِ الوَغى حَمالِ
سَبَقَ المُشيبُ إِلِيه حَتى ابْتَزَهُ وَطَنَ النُّهى مِنَ مَفْرِقِ وَقَدالِ
قَاسى حِياةَ الكَلْبِ إِلا أَنَّهُ قَدَ ماتَ صَبِراً مِيتَةَ الرُّبَعالِ

وهكذا يسير أبو تمام في ملحمة الحربية من مشهد إلى مشهد ، متمثلاً ، هائج العاطفة ، هائج الخيال ؛ ينتصب أمام ذلك اليوم بكل شطاطه ، فيناجيه ، ويشخصه ، ويكاد ينتشى لذكراه ، ويحار كيف يصوره ، فينتزع الصور من الألفاظ انتزاعاً ، وقيم التنازع بين الألفاظ والوجوه التعبيرية والبيانية ، وإذا أنت أمام قصيدة قد تدرعت ألفاظها ، وتتابع آياتها ، جيوشاً جيوشاً ، تقودها العاطفة الصاخبة على أجنحة خيال أشد من الخيول

انطلاقاً ، وإذا أنت أمام حرب مشخصة أحسن تشخيص .

ومن الأحداث الكبرى التي شغلت أبا تمام وفجرت قريحته الشعرية فتح عمورية ، وذلك أن الروم اغتتموا فرصة انشغال العرب بحروب بابل ، فجهز تيوفيل إمبراطور الروم سنة ٨٣٧ م جيشاً عظيماً من مائة ألف مقاتل ، وزحف به قاصداً بلاد العرب ، ففتح زبطرة وأعمل السيف في رقاب أهلها ، كما أعمل النار في ديارها ، واستاق إلى القسطنطينية مالاً وغنائم ، ولما بلغ الخبر أذنى الخليفة ارتاع له ، وهب من ساعته فعبأ العسكر ، ونادى بقبواده الكبار من مثل الأفسين ، وبغا ، وأشناس ، وجعفر بن دينار ، وقسم جيشه كراديس ، وجهزه بالعدة والسلاح ، وكان على أهبة السير إلى عمورية حين نهض المنجمون ونهوه عن الحرب احتساباً منهم أنه طالع نحس ، وأن عمورية لن تفتح إلا في وقت إدراك التين والعب ، فلم يعبأ المعتصم بذلك بل زحف زحفاً شديداً ، حتى بلغ عمورية وحاصرها حصاراً شديداً مدة خمسة عشر يوماً ، ورمى أسوارها وأبراجها بالجانيق وسائر الآلات الحربية المعروفة لذلك العهد ، فخرت الأسوار وانهال الجيش العربي على المدينة ، وقتل من الروم خلقاً كثيراً ، واستاق عدداً من القواد كما رجع بمال وغنائم . وقد اهتزت البلاد لتلك الموقعة اهتزازاً شديداً واهتزت قريحة أبي تمام اهتزازاً عنيفاً ، وانتصب في سامرا يمدح المعتصم ويصف الموقعة ويقول :

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
 بِيضُ الصَّفَائِحِ لِأَسْوَدِ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّمَكِ وَالرَّيْبِ
 وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لِأَمِعَةٍ بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَأَفَى السَّبْعَةِ الشُّهْبِ
 أَيْنَ الرَّوَايَةِ بَلْ أَيْنَ النُّجُومِ وَمَا صَاغُوهُ مِنْ زُخْرِفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
 تَخْرُصًا وَأَحَادِيثًا مُلْفَقَةً لَيْسَتْ يَنْبَعُ ، إِذَا عُدْتُ ، وَلَا غَرْبِ

يا يَوْمَ وَقَعَةِ عَمُورِيَّةٍ أَنْصَرَفَتْ
لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا
غَادَرْتَ فِيهَا بِهَيْمِ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَى
حَتَّى كَأَنَّ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغِمَتْ
ضَوْؤُهُ مِنَ النَّارِ ، وَالظُّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ
فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا ، وَقَدْ أَفَلَتْ
تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ
لَمْ يَغْزُقُ قَوْمًا ، وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ ،
لَوْ لَمْ يَقْدَحْ حُفْلًا يَوْمَ الْوَعَى لَغَدَا
عَنْكَ الْمُنَى حُفْلًا مَعْمُورَةَ الْحَبْلِ
لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشَبِ
يَشُدُّهُ وَسَطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ
عَنْ لَوْنِهَا ، أَوْ كَانَ الشَّمْسُ لَمْ تَغِبِ
وَالظُّلْمَةُ مِنْ دُخَانٍ فِي ضَحَى شَجِبِ
وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِي ذَا ، وَلَمْ تَجِبِ
لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَهَبِ
إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرَّعْبِ
مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

هذه أبيات من القصيدة الطويلة التي نظمها أبو تمام في فتح عمورية ، وقد حلق فيها تحليق النسور ، وحاول أن يربط الأحداث التاريخية بأدب عاطفته الجياشة ، وأن ينطلق مدوياً ، مصوراً ، راسماً بريشته الآفاق والأجواء ، وإذا أنت أمام مشهد هول تقشعر له الأبدان ، وإذا أنت في ليل من عجاج وظلام ، وفي نهار من لهب ونيران . وإذا النيران تمتد وتلتهم وتتصاعد في الجو لهباً ودخاناً ، وإذا أنت أمام شاعر يمزج الحقيقة بالعاطفة الهدارة ، والخيال الحرابي المندفع ، فيكثر من الطباق والجناس ، ويكثر من استعمال الألفاظ الشديدة الوقع ، وإذا الأبيات كتائب كتائب ، والعبارات صلصلة سيوف ورماح .

وهكذا يتجلى أبو تمام رجل حماسة ورجل اندفاع ، ينظم وهو شديد الانفعال ، شديد التطلب للتفكير المركب ، والصور المتناقضة المركبة في تناقضها ، والعبارات المحبوكة حبكاً معقداً ، والحافلة بالموسيقى الهدارة وبكل غريب صاعد .

وإنه ليضيق بنا المقام لو أردنا تتبع أبي تمام في شعره الحماسي الكثير ، وإننا نكتفي بما أوردنا لما فيه من الدلالة على ما لم نورد .

أما أبو الطيب المتنبي ، وقد أتينا على ذكره في باب الفخر الذاتي ، فهو شاعر الحماسة الحمدانية ، وقد فسحت له البيئة مجالاً واسعاً لذلك ، لأن حروب الحمدانيين مع الروم دامت نحو ستين عاماً ، وكان لها أصداء واسعة في طول البلاد وعرضها . وقد استخلص الدكتور زكي المحاسني من كتابات المؤرخين أوصاف جيشي الروم والعرب فقال : « إن جند سيف الدولة كانوا مغاوير محيين للحرب . . . ولم يكن لباس الجندي العربي مختلفاً عن لباس الجندي اليوناني ، الذي سلاحه قوس ونبل ودرع ومزراق وسيف وقأس للمعركة ، وإلى ذلك مغفر يستر الرأس ، ودرع من المعدن تغطي الخدع ، وجانبينات تستر جليه والساعدين ، ومقاود من الفولاذ للخيل . وكانت أغماد السيوف العربية مرصعة بالفضة ، وسروج الخيول العربية مثل سروج خيول الروم . وكان العرب زمن سيف الدولة يلبسون ضروباً من الدروع اسمها الجوشن تغطي القوس . . . ولم يكن شيء يختلف بين الروم والعرب في نظام الحرب سوى الهجوم ، فإن الروم تعودوا مع البلغار والروس الهجوم المنظم بخلاف العرب . أما باقي فنون الحرب فكانت متشابهة كل التشابه عند الفريقيين . . . ولم يكن العرب مثل جنود البيزنطيين يشتملون أداة حروبهم على العجل والدواب وإنما كانت الإبل لحمل أثقالهم . وما كانوا ورحى المعركة تدور ، ليستعينوا بالطبل الكبير أو القرون النافخة ، وإنما كانوا يقرعون على طبول صغيرة قرعاً عاجلاً متتابعاً . وهم إذا ساروا قلقلوا أقتابهم وعلتهم فزحف جيشهم مزيناً بالأعلام الملونة على رؤوس الرماح قصاصات مضمفورة تلوح فوق رماحه المنصوبة التي لا ينهي الطرف إلى مداها . وكانوا جميعاً مزينين بهذه الأعلام الملونة ، وهم إذا ساروا وثار الغبار وراءهم ، ترنموا في مسيرهم بأغان مقرونة بصوت الطبل الغامض المبهم وقرع الصنوج ، وكان الفرسان المسلحون ،

لكى يسرعوا في السير ، يزحف مع كل فارس منهم جندي راجل وراءه » .
 أما أهم المعارك التي جرت بين سيف الدولة والروم فمعركة خرشنة ، ومعركة
 الحدث الحمراء ، ومعركة الدرب وقد سجلها المتنبي في شعره أروع تسجيل .
 أما معركة خرشنة فقد جرت سنة ٩٥٠ م وهي مزدوجة ، بدأت بفوز العرب على
 الروم ثم بفوز الروم على العرب ، وقد اتخذ الطرفان الحيلة الحربية طريقاً إلى
 النصر ؛ أما العرب فقد ساروا بجيش جرار ، وكنوا في بطن اللقان بالقرب من
 خرشنة ، وتقدم سيف الدولة بسرية واحدة يريد الدمستق وجيشه ، فحسب
 الدمستق أن جيش العرب قليل العدد والعدد فهاجمه بعسكره مهاجمة عنيفة ،
 ولم يحسب للطوارئ حساباً ؛ وفيها هو كذلك ثار عسكر العرب الكامن في كل
 مكان وانتفضت الأرض عن رجال وأسلحة ملأت الآفاق ، وإذا الضربة هائلة ،
 وإذا الروم في انحطام شديد ، وإذا العرب على طريق العودة في نشوة أنسهم أن
 الروم جمعوا صفوفهم ، وكنوا لهم في طريق ضيقة وأهالوا عليهم ضرباً وتقتيلاً ،
 ففروا إلى بلادهم هاربين . ولما وصلوا إليها وقف المتنبي مبقاً يبوق الظفر ، مشيداً
 ببطولة رجال أمير حلب ، وراح يصف تلك المعركة ، ويتبع حركات الزحف
 العربي ، ويصف ضعف نظر الدمستق في الأمور ، وانكسار الروم ، وبسالة
 الجيش العربي ، ويعن في وصف الخيول ، ويخرج من الهزيمة الأخيرة بنصر
 معنوي للأمير العربي ، ويقول :

عَبْرِي بَأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ بِنَحْدِغُ	إِنْ قَاتَلُوا جَبِينُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا
وَالْمَشْرِقِيَّةُ لَا زَالَتْ مُشْرِقَةً	دَوَاءُ كُلِّ كَرِيمٍ أَوْ هِيَ الْوَجَعُ
وَفَارُسُ الْخَيْلِ مَنْ خَفَّتْ فَوْقَهَا	فِي الدَّرْبِ وَالِدَّمُ فِي أَعْطَافِهِ دُفَعُ
بِالْجَيْشِ تَمْتَنَعُ السَّادَاتُ كُلَّهُمْ	وَالْجَيْشُ بَابِنِ أَبِي الْهَيْجَاءِ يَمْتَنَعُ
قَادَ الْمُقَاتِلَ أَقْصَى شُرْبِهَا نَهَلُ	عَلَى الشُّكِيمِ وَأَدْنَى سَيْرِهَا سَرَعُ

وأما معركة الحدث الحمراء ، فقد جرت بعد أن هدم الروم ذلك الثغر وقوضوا أركانه ، وبعد أن باشر سيف الدولة إعادة البناء . فقد هاجمه الروم ، وهو في حومة العمل ، وعلى رأسهم برداس فوكاس . ونشبت الحرب هائلة بين الفريقين ، ودامت من طلوع الشمس إلى غروبها ، وأسفرت أخيراً عن فوز الجيش العربي . ولم يترك سيف الدولة مدينة الحدث حتى أتم بناء سورها سنة ٩٥٤ م . فتناول المتنبي ذلك الحادث العظيم ونظم فيه ميمته الشهيرة :

على قَدْرِ أهل العزم تَأْتِي العزائمُ وتَأْتِي على قَدْرِ الكِرَامِ المكارمُ

وقد افتتح القصيدة بإظهار عظمة سيف الدولة وما في قلبه من شجاعة وهمة ، ثم انتقل إلى الحدث وإذا هي حمراء من دم الأعدى ، وإذا سيف الدولة بينها في حومة الوغى ، والروم يهاجمون بجيش جرار ، تجمع فيه كل لسن وأمة ، بجيش يغطيه الحديد ، وتتصاعد زمازمه إلى أعلى الفضاء :

أَتَوْكَ يَجْرُونَ الحديدَ كأنَّما سَرَوْا بجيادٍ ما لهنَّ قوائمُ
إذا بَرَقُوا لم تُعْرِفِ البِيضُ منهمُ ثِيَابُهُمْ من مِثْلِهَا والعمائمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زَحْفُهُ وفي أذنِ الجوزاءِ منه زمازمُ
تَجَمَّعَ فِيهِ كُلُّ لِسَنِ وأُمَّةٍ فما يُنفِهمُ الحُدُثَاءَ إِلَّا التراجِمُ

والتحم القتال شديداً ، ودارت الدوائر على جيش الروم ، فوقف سيف الدولة باسماً ، وقد ضم جناحي العدو على القلب ضمة عنيفة ، وراح يطلق الضربات إثر الضربات ، واستغنى عن الرماح بالسيوف :

ومنْ طَلَبَ الفِتحَ الجليلَ فَإِنَّما مفاتيحُه البِيضُ الخِفَافُ الصَّوارِمُ

وهنا وقف المتنبي يصف في هياج ظاهر ، وفي لهجة مطوية على الإعجاب

بالعظمة والبطولة ، وإذا ألفاظه متجالدة ، وحروفه مدوية ، ومعانيه متتابعة
تتابع السيل الجارف . في غلو خيالي لا يحده حد ، حتى قال واصفاً الخيل :

إِذَا زَلِقَتْ مَشِيَّتَهَا بِبُطُونِهَا كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمِ

وهكذا انتهت المعركة بقصيدة ليست دون المعركة هولاً وخلوداً .

وأما معركة الدرب . فرجع أسبابها إلى أن البطريق أقسم عند ملكه أنه
يعارض سيف الدولة في الدرب ، وسأله أن ينجده ببطارقه وعدده وعدده ،
ف فعل ، فخاب ظنه . واندحر واندحرت معه جيوشه ، وكانت هذه المعركة آخر
المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم ، فنظم المتنبي فيها قصيدة كانت آخر
ما أنشده بحلب : ومطلعها :

عُقبِي اليمينِ عَلَى عُقبِي الوَعْيِ نَدَمُ ماذا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

وقد تناول المتنبي قسم البطريق وراح يبين له كيف حلف على الظفر بسيف
الدولة ، فاضطره إلى نقض يمينه فتي أراه من شدة الضرب ما أذهله عن قسمه
وأنساه كلامه ووعدده ، فتي تكل السيوف وهو لا يكل :

كُلُّ السُّيُوفِ إِذَا طَالَ الضَّرَابُ بِهَا يَمَسُّهَا - غَيْرَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ - السَّامُ

فتي ظن الروم أنه كالمصباح في حلب إذا فارقتها إليهم أظلمت وانتقض
أهلها عليه وشقوا عصا الطاعة ، ولم يعلموا أنه الشمس التي نعم كل مكان بنورها ،
وقد مشى إليهم بجيش بعيد الأطراف ، ونخيل حميت حدائد لجمها من شدة
الحر ، حتى كوتها الحكم كالمياسيم ؛ ولما وصل إلى سمنين وردت خيوله بجيرتها
فسمع للجمها نشيش عندما أصابها الماء وأطفأ حرارتها ! ثم انتقل إلى قرى هنريط
فجالت الخيل فيها للغارة والقتل ، وجالت السيوف لتقطع الرؤوس ، فهرب

العدو واجتاز نهر أرسناس على يحد ملجأ ، فلم يجد ، لأن خيول الجيش العربي أصبحت سفناً تمخر في عباب النهر ، مندفعة أشد اندفاع .

وها هو ذا المتنبي في حومة القتال يطلق صوته ويقول مخاطباً أمير حاب :

صَدَمْتَهُمْ بِخَمِيرٍ أَنْتَ غُرْتَهُ وَسَمَّهِرَيْتَهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمٌ
فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمْ يَسْتَقْطِنُ حَوْلَكَ وَالْأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ
وَالْأَعْوَجِيَّةُ مَلَأَ الطَّرْقَ خَلْفَهُمْ وَالْمَشْرِفِيَّةُ مَلَأَ الْيَوْمَ فَوْقَهُمْ
إِذَا تَوَافَقَتِ الضَّرْبَاتُ صَاعِدَةً تَوَافَقَتْ قُلُوبٌ فِي الْجَوِّ تَصْطَلِمُ

وهكذا ينطلق المتنبي في جيشان عاطفة وثورة خيال ، وهكذا يحتتم ملحمة الحمدانية بقصيدة هي من أروع قصائده ، وهكذا « خلد ذكر الحروب ، ووصف تلاوين الفروسية وتهاويلها ، في دنيا الحمدانيين مع الروم ، وكتب بيده أكبر ملحمة للعرب والإسلام بأفخم أسلوب وأعذب بيان » .

شعر الحماسة بعد أبي الطيب المتنبي

واصل الشعر الحماسي سيره بعد أبي الطيب ، فكان عند أبي فراس الحمداني ثورة نفسية ممزوجة بذل الأسر ، وكان عند صفي الدين الحلبي انتفاضة شديدة ، ولا سيما في قصيدته التونية المشهورة التي أصبحت نشيد القومية العربية من بعده ، وكان عند ابن هاني الأندلسي وعند الشيخ ناصيف اليازجي تقليداً لشعر المتنبي ، وكان عند محمود سامي البارودي انطلاقات عسكرية ، وكان عند أحمد شوقي وخليل مطران نماذج تاريخية اجتماعية ، وكان في كل دولة عربية أناشيد قومية وتنفسات تحررية . وإنه لا يسعنا التطويل في مثل هذا الكتيب ، ولنا في ما بسطناه نماذج كافية على ما فطرت عليه الروح العربية وعلى ما تصبو إليه ، ثم على ما قامت به من جليل الأعمال في ميادين البطولة ومجالات المجد والخلود . وعلى ضيق المجال ليس لنا بد من كلمة نقولها في شاعر معاصر هو في نظرنا أبو الملحمة العربية الحديثة ، وهو في نظرنا القمة التي وصل إليها الشعر الملحمي الواعي ، والشعر الملحمي الموسوعي ، والشعر الملحمي الذي يحمل ثقافة عصور ، وفلسفة دهور ، والشعر الملحمي الذي يعالج قضايا العرب الاجتماعية في حر نار وفصاحة نور ، والشعر الملحمي الذي يوجه ويقود في بلاغة عربية أصيلة ، وفي بيان عربي رائع ، وفي مراعاة شديدة لنظام القصيدة العربية الكلاسيكية ، وفي تدفق ينبوعى يضطرب في لون محلي ، وفي تنوع غني ، وفي جو من البطولة المعنوية والبطولة المادية . أما ذلك الشاعر فهو « بولس سلامة » ، وأما ملحمة الكبرى فهي « ملحمة عيد الرياض » التي ظهرت في هذه الأيام الأخيرة ، ونحن آخذون في طبع هذا الكتيب ، والتي نظمها صاحبها في مدة ثمانية أشهر ،

واستغرق طبعها نحو عشرة أشهر والتي وقعت في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وفي نحو ثمانية آلاف بيت من الشعر ، كلها على البحر الخفيف .

كان الشاعر بولس سلامة قد أتحف البلاد العربية بملاحمة « عيد الغدير »
 وها هو ذا يتحفها اليوم بملاحمة « عيد الرياض » ، وقد تغنى في الأولى بالإمام
 عليّ ، وتغنى في الثانية بماثر ابن سعود لما لقي فيه من بطولة تلتحق بعالم الخوارق ،
 وسخاء حاتمى ، وذكاء فطرى للاح ، وعدل وحلم ووفاء ، واتضاع وخفض
 جناح ، ورقة وتقوى .

قال بولس سلامة في مقدمته : « ولعمري إن هذه الملحمة لترتفع عن الحادثة
 اليومية وجرى المعتاد ، ولا يقع مثلها على رصفات الشوارع أو فوق أدراج الفنادق
 كل يوم ، بل لم يقع مثلها في أيام العرب . فأين منها حرب البسوس ، أو حرب
 داحس والغبراء ؟ فإن عنتره ، على شجاعته ، في زمن يقي فرسانه دروع وأتراس ،
 لا يوازي ابن سعود فاتحاً صدره للرصاص والقنابل ، بل أين منها حرب طروادة
 نفسها ، لولا الخيال الهوميرى الذى لم يقتصر على إنزال آلهة اليونان إلى المعمعان ،
 بل غمر بالألوهة أبطاله . فإذا كان لأمة الإغريق أن تباهينا بعبقرية شاعرها
 وإبداعه في الخلق والاختلاق ، فإننا نباهينا ببطولة عبد العزيز التي لا يضيرها
 صدق الواقع » .

ومن ثم فقد اعتمد الشاعر الأصل التاريخى ، وراح يلقى عليه من شخصيته
 القوية ، وصادق انفعالاته ، وروعة خياله ، ما رفعه إلى مستوى عال من العوالم
 الملحمية . وراح الشاعر يسرد الأحداث التاريخية المتعلقة بابن سعود ، وراح
 يمزج السرد بانفعالات شعرية ، واستطرادات وجدانية ، وما إلى ذلك مما يريح
 القارئ والسامع ، وراح ينظم القصائد الطويلة في جزالة وسهولة عجيبتين ، وفي تدفق
 شعرى رائع ، وهو كلما أطال أجاد ، وكلما تدفق ازداد انفجاراً ، وكلما انفجر
 سبغ شعره في عالم من الروعة الأخاذة ، التي تجمع البداوة إلى الحضارة والقطرة ،

إلى الفلسفة والحكمة وعلوم الاجتماع . وهكذا كانت ملحمة عيد الرياض موسوعة تاريخية فلسفية ، وهكذا كانت مزيجاً من إيمان وحماسة ؛ وهكذا كانت صلصلة سيوف ، وورفة أجنحة ، وخفقة قلب حى ، وجمالاً شعرياً على كل حال . وإليك نموذجاً من نشيدها الأول ، وعنوانه « أحلام الجزيرة » :

بَعَثَ الْحَرْبَ «دَاحِسٌ» فَاسْتَطَارَتْ
 أَمْطَرَتْ نَارَهَا نَجِيعاً وَدَمْعاً
 وَبَنُو «الْعَبَسِ» جَمْرَةُ الْعُرْبِ لَوْلَا
 إِذْ يُنَادُونَ وَيُكْ عَنَتَرُ أَقْدِمُ
 الْمِرْوَاتُ فِي دِمَاهِ اسْتَجَابَتْ
 وَتَنَثَّرَتْ أَوْدَاجُهُ وَالْجُفُونُ الِ
 فَرَمَى فِي الْعِجَاجِ مُهْرًا قَتَاماً
 قُنْفُذًا عَادَ مِنْ وَقُوعِ السُّهَامِ الزِ
 كَادَ يَبْكِي مِنَ الْجَرَاحَاتِ لَوْلَا
 فَتَعَجَّبَ لِأَذْهَمِينَ أَطَلَّتْ
 قَدْ يَذُرُّ الضِّيَاءُ مِنْ جَنَحِ لَيْلِ
 لَمْ يَرُوعَ «أَبَا الْفَوَارِسِ» جَيْشُ
 خَلْفَهُ طَرْفُ عِبَلَةٍ وَكَمَاهَا
 وَأَمَدَّتْ بِالْعَثِيرِ «الْقَبْرَاءُ»
 وَمَنْ الْحَافِرِينَ ذَرَّ الْبَلَاءُ
 عَنَتَرُ لَاعْتَرَى سَنَاها انْطَفَأُ
 وَعَزِيزٌ عَلَى النَجِيدِ النَّدَاءُ
 وَاسْتَشْمَاطُ الْفَوَادِ وَالْأَحْنَاءُ
 حُمُرُ آجَتْ قَدُونَهَا الرَّمْضَاءُ
 كَانَ لَيْلًا فَحَمَرَتْهُ الدَّمَاءُ
 رَقَ غَصَّتْ بِسَيْلِهَا الْأَعْضَاءُ
 أَنَّ فِي سَرَجِهِ اسْتَقَرَّ الرَّجَاءُ
 مِنْهُمَا فِي الْمَعَامِعِ الْأَضْوَاءُ
 وَمَنْ الْخَيْرِ قَدْ يَطُلُّ الشَّقَاءُ
 كُلَّمَا ازْدَادَ زَادَ مِنْهُ الْمَضَاءُ
 فَلَمْنَايَا لَطْرَفَهُ إِغْرَاءُ !